الاغتراب الوجـودي
في رواية موسم الهجرة إلى الشمال
للروائي (الطيب صالح)

د. حازم سليمان الناصر

كلية الآداب – جامعة بغداد

يعد (الطيب صالح)(*) من الروائيين العرب المعـاصرين الذيـن تـأثرت أعمالهم بالفلسفة الوجودية ، ونجد هذا الأثر واضحاً في رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) ، حيث يتبين الأثر منذ بداية الأحداث في الرواية .

تبدأ الرواية ، بعودة الراوي من إنجلترا بعد غربة مادية اسـتمرت سبع سنين . بعيداً عن أهله وقريته الصغيرة التي تقع عند منحنى النيل في السـودان ، وكان أول ما جلب أنتباهه بعد عودة من هذه الغربة تلك النخلة القائمة فـي فناء داره . أدرك أن للإنسان امتداداً وأعماقاً لا حدود لها[1] . لذا فأنه يقول : (أحـس أنني لست ريشة في مهب الريح ولكن مثل تلك النخلة ، مخلوق لـه أصـل لـه جذور. له هدف)[2] .

(*) هو الطيب محمد صالح أحمد ، ولد في قرية الدبة من منطقة مـروى فـي الشمال الأوسط من السودان عام ١٩٢٩ ، عمل في وظائف عديدة في بلـده السودان وله مؤلفات قصصية وروائية منها (عرس الزين) ، بندر شاه (ضو لبيت) ، (دومة ود حامد) ، (نخلة على الجدول) ، (حفنة تمر) ، وقد ترجمت رواياته إلى اللغة الألمانية والإيطالية ، والروسية والإنجليزية ، للمزيد أنظر، النسيج ، د. سيد حام : بانوراما الرواية العربية الحديثة ، دار المعـارف ، ط١ ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص٢٤٤-٢٥٢ .

وفي القرية يلتقي الراوي بغريب آخر ، جاء منذ خمس سنوات ، وكان يتمتع بحالة مادية جيدة ، فبنى بيتاً واشترى مزرعة ، وتزوج بنت محمود ، رجل لا يعرفون عنه أي شيء في القرية ، سوى أنه رجل غريب[٣] . هذا الغريب هو (مصطفى سعيد) ، الذي يعيش غربتين ، الغربة الأولى غربة مادية أما الثانية فهي غربة روحية[٤] .

لعل أصول غربة مصطفى سعيد المادية ، هي نشأته يتيماً ، حين مات أبوه قبل أن ترى عيناه النور ببضعة أشهر ، ولم يكن له أخوة فعاش مع أمه ، التي كان يحس أنه يعيش معها بغربة مادية ، على الرغم من أنها لا أهل لها ، وهو لا أهل له ، إلا أنه كان يحس غربة حقيقية معها ، ولهذا نراه يصفها بقوله : (كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق ، لعلني كنت مخلوقاً غريباً ، أو لعل أمي كانت غريبة . لا أدري)[٥] .

هذه الغربة ولدت له شعوراً عدائياً للآخر ، ويتجسد ذلك في قوله : (كنت أحس إحساساً دافئاً بأنني حر ، بأنه ليس ثمة أب أو أم ، يربطني إلى بقعة معينة ومحيط معين)[٦] .

بل أننا نرى أن غربة مصطفى سعيد عن أمه وعن ذاته تتضح في يوم سفره إلى القاهرة ، فذهب إلى أمه ليخبرها بالسفر ، نظرت إليه نظرة غريبة ثم أفترت شفتاها لحظة كأنها تريد أن تبتسم ، ثم أطبقتهما ، وعاد وجهها كعهده قناعاً كثيفاً بل مجموع أقنعة . ثم قالت له : (لو عاش أبوك ، لما اختار لك غير ما اخترته لنفسك . أفعل ما تشاء . سافر . أو ابقاه أنت وشأنك ، أنها حياتك ، وأنت حر فيها)[٧] .

ثم نجد أن مصطفى سعيد يعقب على حديث أمه بقوله : (كان ذلك وداعنا. لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء . مخلوقان سارا شطراً في الطريق معاً ، ثم سلك كل منهما سبيله . وكان ذلك في الواقع آخر ما قالته لي ، فأنني لم أراها بعد ذلك.. وركبت القطار ولم يلوح لي أحد بيده ولم تنهمر دموعي لفراق أحد .

وضرب القطار في الصحراء ، ففكرت قليلاً في البلد الذي خلفته ورائي ، فكان مثل جبل ضربت خيمتي عنده ، وفي الصباح قلعت الأوتاد وأسرجت بعيري وواصلت رحلتي)[٨] .

أننا نجد تناقضاً واضحاً بين موقف الراوي وموقف مصطفى سعيد ، حيث نجد ، أن الأول يحاول إعادة صلته بالآخرين في محاولة فهم لإيجاد بواعث حقيقية للأنتماء ولتحقيق معنى في الحياة ، أما الثاني فكان يسعى إلى مزيد من الغربة يعيش خلالها الحياة دون أي حماسة حقيقية رغم ما يفعله فيها ، لأنها تصبح وسائل لأشغال زمن لم يعد ملكه[٩] .

كما نلاحظ أن الراوي يعد نفسه شيئاً مهماً ومتكاملاً ، وفي حالة استمرارية وهذا ما نجده في قوله : (لا لست أنا الحجر يلقى في الماء ، لكنني البذرة تبذر في الحقل)[١٠] .

أما مصطفى سعيد ، فأنه غريب عن القرية ، وغريب عن نفسه ، بل هو أنموذج من تلك النماذج التي تعين على الاغتراب حتى في لقائها مع الآخرين ، لذلك نجده عندما يتعامل مع الآخرين ويشاركهم بأفراحهم وأحزانهم كافة ، يبقى منغلقاً مع نفسه ، بل أنه يظل عالماً من الانغلاق المغترب ، حتى في ساعات السكر معهم يغترب بلغته[١١] . وأحسن دليل على ذلك انشاده بالإنجليزية وهو جالس معهم فيقول[١٢] .

هؤلاء نساء ملاندن

ينتظرون الضائعين

ينتظرون الضائعين ، الذين أبداً لن يغادروا الميناء

ينتظرون الضائعين ، الذين أبداً لن يجيء بهم القطار

إلى أحضان هؤلاء النسوة ، ذات الوجوه الميتة

ينتظرون الضائعين ، الذين يرقدون موتى في الخندق

والحاجز والطين في ظلام الليل

أن أغتراب مصطفى سعيد عن ذاته يصل به إلى حد أنه لا يتذكر شيئاً عن نفسه وعن الرجال الذين يجلس معهم في غرفة واحدة ، وهم في حالة من السكر ، فهو يقول : (خامرني بغتة ، شعور فظيع ، شيء مثل الكـابوس ، كأننا نحن الرجال المجتمعون في تلك الغرفة لم تكن حقيقة أنما وهماً من الأوهام)[١٣] .

ثم تتوالى الإنفعالات الإنسانية نتيجة لتتالي سلسلة الممارسات اليومية لحياة مصطفى سعيد التي على الرغم من أحداثها الكثيرة : علاقات غرامية ، نجاح في الدراسة والعمل ، جريمة قتل ، زواج وأولاد . إلا إنها أحداث تؤكد أن حياة مصطفى سعيد لا معنى لها ، أنها آلية مكونة من الترديد الأبدي للأفعال والأفكار الصغيرة العمياء ، لا تتقدم نحو هدف وأنما تثير الأشمئزاز بما تتضمنه من ترديد آلي وما تحتويه من دلالة على مضاعفة عزلة الإنسان[١٤] .

أن مصطفى سعيد يقضي أغلب حياته مسافراً والسفر غربة تكشف عن مقولة الخوف الوجودي لأنها تجعلنا بعيدين باستمرار عن أنتمائنا : (ومحرومين من جميع متكآتنا ومنزوعة منا جميع أقنعتنا ، فأننا نكون بكليتنا على سطح نفوسنا)[١٥] .

أما مصطفى سعيد فيقول : (واستمرأت طوال الرحلة ذلك الإحساس فيّ أني في لا مكان وحدي ، أمامي وخلفي الأبد أو لا شيء)[١٦] .

عندما فكر مصطفى سعيد في الاستقرار كان مغترباً لأنه اختار بلداً غريباً عنه ، وتزوج امرأة غريبة ، بل وكانت حياته في هذه الرحلة عبارة عن رحلة سفر كرحلاته السابقة ، إذ أنه يرحل غريقاً بعد أن ترك شواهد غربته : (كتب الاقتصاد والتاريخ والأدب . علم الحيوان ، رياضيات ، فلك ، دائرة المعارف البريطانية ، أفلاطون ، توقيعات ، إهداءات ، اغتصاب أفريقيا ، مصطفى سعيد)[١٧] . شواهد غربته ، تلك الصور المصفوفة على الرف التي تركها خلفه ، (مصطفى سعيد يضحك ، مصطفى سعيد يكتب ، مصطفى سعيد في مكان ما في

الريف ، مصطفى سعيد في الزي الجامعي ، مصطفى سعيد في تمثيلية الميلاد وعلى رأسه تاج ، مصطفى سعيد يتوسط رجل وامرأة ، مصطفى سعيد لم يترك لحظة تمر إلا وسجلها للذكرى والتاريخ)[١٨] .

أننا نستنتج من رواية الطيب صالح ، أن بطله مصطفى سعيد ، كان يعيش حياة ممتلئة بالتفاصيل الإنسانية إلا أنه مع ذلك ، نجد أن حياة البطل لم تكن إلا عزلة لإنسان تورط في موقفه وفي اختياره ، وأن كل ما في حياته لم يكن سوى يوميات آلية فقدت معناها وتحولت إلى حزن صادر عن غربة مهجورة عزلته أمام نفسه وعزلته أمام الأنا الآخر . وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه أي إحساس بالآخرين ، كان محبوباً عندهم ، وكان لديه أصدقاء منهم[١٩] .

ربما كان مصطفى سعيد في هذا شبيهاً بميرسو بطل الغريب ، الذي كان (غريباً على العالم ، من ذلك فأن العالم يمنحه بلا انقطاع ألوانه وعنايته ومجراه الكبير المهدي)[٢٠] .

لقد انتهى مصطفى سعيد كما بدأ وحيداً غريباً حزيناً مثلاً لما قاله القسيس مرة : (كلنا يا بني نسافر وحدنا في نهاية الأمر)[٢١].

لا يفوتنا أن نذكر هنا أن الطيب صالح ، قد أختار لروايته ، بناءً أسطورياً ثم حاول أن يستفيد من إطار الغربة المادية وما يمكن أن تعكسه من غربة داخلية في التقاء الحضارتين الشرقية والغربية ، مصطفى سعيد والراوي على مستوى الحدث - نموذجان مختلفان لخروج الشرقي وتعامله من خلال مزاجه الخاص مع أطر الحضارة الغربية ، ثم انعكاس هذا على موقف كل منهما، مما أدى إلى محاولة مصطفى سعيد من أن يصبح شيئاً مهماً ، تمثل ذلك بأن يغزو وبشرقيته عمق المجتمع الغربي . وأن ينتقم من سنوات الذل والحرمان والاستعمار وأنهار في النهاية عائداً إلى قريته ووطنه ليمارس فيها يوميات عادية ، أما الراوي فقضى سنوات الدراسة محاولاً الأستعادة من علم الغرب ولم يستطع وعاد إلى بلاده يبحث عن جذور الأنتماء[٢٢] .

لم يكن الراوي إلا امتداداً لمصطفى سعيد لأن مصطفى سعيد مات غريقاً في النيل في نهاية مأساوية بعد أن استتبت امرأته ولدين ، تولى الراوي فيما بعد استكمال تربيتهما بناء على وصية من مصطفى سعيد قبل وفاته[٢٣] . وبهذه الحالة يكون مصطفى سعيد قد مثل الجيل الأول ، الذي اربكته عوامل الحضارة الغربية، والراوي من الجيل الثاني ، الذي أخذ الأمور بتمهل وحذر مستفيداً من درس الأمس وأن يلقنه هو ودرس اليوم للجيل الجديد[٢٤] . فضلاً عن ذلك ، نرى أن حسنة بنت محمود زوجة مصطفى سعيد وأم ولديه تحمل للراوي شيئاً من الحب الدفين ، كما أنها رفضت وصاية ود الريس والزواج منه فقتلته وقتلت نفسها مفضلة هذا المصير على أن تكون حرثاً لود الريس بما يمثله من جيل قديم[٢٥] .

لقد استعمل الطيب صالح ، هذه القضية التي ترددت كثيراً في الأدب الروائي العربي منذ فترة مبكرة ، وحاول أن يوظف ما تحمله من غربة مادية في تحريك غربة مصطفى سعيد الوجودية ، وبهذا تصبح رواية موسم الهجرة إلى الشمال من خلال حس مصطفى سعيد عالماً غريباً خالياً من المعنى والامتلاء رغم المحاولات التي تبذل لصنع أشياء ذات قيمة[٢٦] .

أننا نتفق مع القائلين ، أن مصطفى سعيد فيه الكثير من شخصية المؤلف تفكيراً واغتراباً[٢٧] . ولعل ذلك ما يفسره الطيب صالح في مقابلة أجريت له ، قال فيها : ((فقد تغربت ، ثم تزوجت ، (في زماننا كان الزواج من أبنة العم هو المثل الأعلى) ، كنا نحس أننا نريد أشياء ، كنا جيلاً متميزاً بعطف شديد على مجتمعنا على العكس من الأجيال الشابة اليوم)[٢٨] . ثم جاءت غربته هذه بمحض الصدفة ، لأنه خرج من السودان وتغرب عنها بمحض الصدفة ، فهو غادر السودان دون أي سبب يذكر ، فجاء طرحه للاغتراب بمحض الصدفة في هذه الرواية ولا سيما عند بطل روايته الذي أغترب بمحض الصدفة[٢٩] .

أننا نلاحظ هنا ، كثيراً من أوجه التشابه بين المؤلف وبطله ، حيث يمر البطل بالدور نفسه ، وبالحالة نفسها التي يعيشها المؤلف في إنجلترا وفي السودان، وهذه الحالة نجدها عند البطل مع كثيراً من التفاصيل الإنسانية ذات الاهتمام المشترك .

الهوامـــش :

١ - صالح، الطيب : موسم الهجرة إلى الشمال ، دار العودة ، ط٢ ، بيروت، ١٩٦٩ ، ص٥.

٢ - المصدر نفسه ، ص٦.

٣ - المصدر نفسه، ص٦٠.

٤ - الورقي، السعيد : اتجاهات الرواية العربية المعاصرة ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ١٩٨٨ ، ص٣٠١ .

٥ - صالح، الطيب : موسم الهجرة إلى الشمال ، ص٢٣ .

٦ - المصدر نفسه ، ص٢٣ .

٧ - المصدر نفسه، ص٢٧ .

٨ - المصدر نفسه ، ص٢٧ ، ٢٨.

٩ - الورقي، السعيد : المصدر السابق ، ص٣٠١ .

١٠ - صالح، الطيب : موسم الهجرة إلى الشمال ، ص٩.

١١ - الورقي، السعيد : المصدر السابق ، ص٣٠٣.

١٢ - صالح، الطيب : الهجرة إلى الشمال، ص١٧ ، ١٨ .

١٣ - المصدر نفسه ، ص١٨ .

١٤ - الورقي، السعيد : المصدر السابق ، ص٣٠٣ ، ٣٠٤ .

١٥ - دولوبيه، روبير : كامو والتمرد ، ترجمة سهيل لوريس ، دار الآداب البيروتية ، ص١٢ ، ١٣ .

١٦ - صالح، الطيب : موسم الهجرة إلى الشمال ، ص٣١ .

١٧ - المصدر نفسه ، ص١٣٨ ، ١٣٩ .

١٨ – المصدر نفسه ، ص١٤٠ .

١٩ – الورقي، السعيد : المصدر السابق ، ص٣٠٦-٣٠٧ .

٢٠ – دولوبيه : المصدر السابق ، ص٧٤.

٢١ – صالح، الطيب : موسم الهجرة إلى الشمال ، ص٣٢ .

٢٢ – الورقي، السعيد : المصدر السابق ، ص٣٠٧-٣٠٨ .

٢٣ – صالح، الطيب : موسم الهجرة إلى الشمال ، ص٨٩ .

٢٤ – الورقي، السعيد : المصدر السابق ، ص٣٠٨ .

٢٥ – صالح، الطيب : موسم الهجرة إلى الشمال ، ص١٢٥-١٢٩ .

٢٦ – الورقي، السعيد : المصدر السابق ، ص٣٠٨ .

٢٧ – دحروج ، فواز أحمد : الطيب صالح روائياً ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب، جامعة بغداد ، ١٩٨٣ ، ص٨٣ .

٢٨ – السامرائي ، ماجد : مقابلة مع الطيب صالح ، مجلة الآداب البيروتية ، العدد (١-٢) ، ١٩٨١ ، ص٣ .

٢٩ – السامرائي، ماجد : هموم روائي في عالم متغير ، مقابلة مع الطيب صالح، مجلة الأقلام العراقية ، العدد (٣-٤) ، ١٩٨٢ ، ص٣.